المقتبس

الجزء العاشر من المجلد الثالث

شوال سنة ١٣٢٦ موافق نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٠٨

الطالع السعيد

من المخطوطات النفيسة التي كادت تعبث بها يد الضياع كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد لكمال الدين ابي الفضل جعفر بن ثعلب الادفوي المولود في نصف شهر شعبان سنة ٦٨٥ والمتوفى في سابع عشر شهر صفر سنة ٧٤٨ الفه باشارة من شيخه اثير الدين ابي حيان النحوي الاندلسي وقصره على تراجم النابغين من اقليم قوص وما يتبعه من البلدان والقرى وهو اول ما ألف من نوعه خاصاً باهل الصعيد . ولم يكن بمصر من نسخ هذا الكتاب غير نسختين بدار الكتب الخديوية كتبتا ناقصة وما زلت في شوق اليه وبحث عنه حتى ظفرت بنسخة منه كاملة كتبت سنة ٨٨٠ برسم الفقيه مجد الدين ابي عبدالله بن شرف الدين حمزة الخطيب الواعظ وهي كغالب المخطوطات لا تخلو من التحريف والتصحيف خصوصاً في مواضع اهمال الناسخ اتمامها فلا تتيسر قراءتها الا بضرب من الحدس وتدقيق النظر .

افتتح المصنف كتابه بمقدمة تشتمل على مسافة هذا الاقليم وتفصيل ما اختص به من المزايا فذكر ان مسافته تبلغ في الطول اثني عشر يوماً بسير الجمال السير المعتاد وتبلغ سبع العرض ثلاث ساعات واكثر او اقل تبعاً للاماكن العامرة وانه ينقسم الى كورتين يفصل بينهما النيل فالشرقية منها تتصل شرقاً بالبحر المالح (هو بحر القلزم المسمى الآن بالبحر الاحمر) واولها من الشمال ارض اخنو وآخرها من الجنوب ابهر الشرقية بضم الهمزة وسكون الباء الموحدة وضم الهاء ومن مدنها الشهيرة قنا وقفط وقوص وهي قاعدة الاقليم في عصره وكان

بها اربعون مسبكاً للسكر وست معاصر للقصب وبها قباب باعالي دورها قيل ان من ملك عشرة آلاف دينار يجعل له قبة في داره وواليها تكاتبه ستة ملوك . ومنها الاقصر واسوان قال واهلها يوصفون بالمحك في المعاملة وشدة المخاصمة وفيها يقول دعبل بن علي الخزاعي وكان اقام بها والياً كما نقل اهل التواريخ .

وان امرأ امست مساقط رأسه باسوان لم يترك له الحزم معلما
حللت محلا يقصر الطرف دونه ويعجز عنه الطيف ان يتجسما

ولهم لغة يجعلون الطاء تاء فيقولون التريق في الطريق والتاق في الطاق ويبدلون الفاء بالباء والباء بالفاء فيقولون ضربته في هذا يعنون بهذا اه . والكورة الغربية اولها شمالاً بردیس وآخرها جنوباً ابهر الغربية ومن مدنها ادفو بلد المصنف وعشه الذي درج منه . ثم افاض في محاسن هذا الاقليم من عذوبة ماء وطيب هواء ووفرة غلة وكثرة فاكهة قال واظن مساحة ارض بساتينه ونخله تقارب عشرين الف فدان ونقل غرائب في حمل اشجاره قد يعد بعضها من المبالغة والغلو ولاغرو فكل فتاة بابيها معجبة . وذكر من معادنه معدن البرام بالقرب من قنا ومعدن الزمرد وحجر البازهر والنفط والنطرون والرخام ومن معاهد العلم ست عشرة مدرسة بقوص وثلاثا باسوان واثنتين باسنا وواحدة بالاقصر واخرى بارمنت واثنتين بقنا وواحدة بهو واخرى بقمولا .

اما ترتيب الكتاب فعلى حروف المعجم ابتدأه بابراهيم وختمه بيونس وذيله بباب في الكنى ذكر به من كنيته اسمه وغالب تراجمه مختصرة يقتصر فيها على المولد والوفاة وشيء من اخبار المترجم وروايته ان كان من المحدثين . على انه خالف ذلك في البعض فاطال فيهم كالتوزري صاحب نهاية الارب والرشيد بن الزبير واخيه المهذب الشاعر والتاج بن المفضل وعبدالرحمن الخفي وذكر من سعة تبحره في الفقه ان الفتوى كانت ترفع اليه ورجله في الركاب فيكتب عليها بدون توقف وابن الحاجب مؤلف الكافية وقيصر المعروف بتعاسيف العالم الرياضي الذي عمل لسلطان حماة كرة عظيمة صوّر فيها الكواكب المرصودة وصنع له طاحوناً على العاصي وبنى له ابراجاً وتحيل فيها بحيل هندسية ومجد الدين بن دقيق العيد وابنه تقي الدين الامام المشهور وترجمته اطول ترجمة في الكتاب والقفطي صاحب التاريخ وغيرهم ممن استحقت اعمالهم اطالة الكلام فيهم . ولم يهمل النساء فذكر منهن من اشتهرن بالعلم والفضل كتاج النساء ابنة عيسى القوصية واختها مظفرية وخديجة بنت علي بن وهب ورقية بنت محمد بن علي بن وهب وكلهن من أسرة بني دقيق العيد .

واعجبني منه التزامه الصدق وميله مع الحق فيما كتب فترجم كل انسان بما له وعليه

حتى تقي الدين بن دقيق العيد لم يمنعه ذكره لمناقبه وحسناته وشهادته له ببلوغ رتبة الاجتهاد من ان يقول فيه « لكنه تولى القضاء في آخر عمره وذاق من حلوه ومرّه وحط ذلك عند اهل المعارف والاقدار من قدره وحسن الظن ببعض الناس فدخل عليه الباس وحصل له من الملامة نصيب والمجتهد يخطىء او يصيب ولو حيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس احمد عصره ومالك دهره الخ » وترجم عبدالقادر بن المهذب وهو ابن عمه فوصفه بالذكاء النادر وسعة الاطلاع الا انه انحى عليه لسوء عقيدته وقال في آخر ترجمته « ومرض فلم أصل اليه ومات فلم أصل عليه » .

وفي الكتاب رسائل وخطب وقصائد ومقطعات لا تخرج عن الاسلوب المألوف لاهل ذلك العصر منها وصية لجلال الدين الدشناني كتبتها لابنه تاج الدين يقول فيها

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشداً . بابني ارشدك الله وايدك اوصيك بوصايا ان انت حفظتها وحافظت عليها رجوت لك السعادة في دينك ومعاشك بفضل الله ورحمته ان شاء الله تعالى ولا قوة الا بالله . أولاها وأولاها مراعاة تقوى الله تعالى تحفظ جوارحك كلها من معاصي الله عز وجل حياء من الله والقيام بأوامر الله عبودية لله . ثانيتها لا تستقل على جهل ما تحتاج الى علمه وثالثتها ان لا تعاشر الا من تحتاج اليه في مصلحة دينك ومعاشك . ورابعتها ان تنصف من نفسك ولا تنتصف لها الا الضرورة وخامستها ان لا تعادي مسلماً ولا ذمياً وسادستها ان تقنع مما رزقك من جاه ومال وسابعتها ان تحسن التدبير فيما في يدك استغناء به عن الخلق وثامنتها ان لا تستعين بمن الرجال عليك وتاسعتها ان تقمع نفسك عن الخوض في الفضول بترك استعلام ما لم تعلم والاعراض عما قد علمت وعاشرتها ان تلقى الناس مبتدئاً بالسلام محسناً في الكلام منطلق الوجه متواضعاً باعتدال مساعداً بما تجد اليه السبيل منجيباً الى اهل الخير مداريا لاهل الشر متبعاً في ذلك السنة اللهم أهله لامتثالها » .

وغالب ما ورد فيه من المنظوم اشبه بشعر العلماء منه بشعر الشعراء على انه لا يخلو مما يستجاد كقول الامير مجير الدين بن تميم الفطي .

اعيذك اني بين اهلي وجيرتي ... وحيد لديهم عادم ود مشفق
اقلب طرفي لا ارى لي مؤانساً ... اعمرك فيهم غير طرس ممزق
يحدثني عن حسن احوال من مضى ... ويخبرني عن قبح احوال من بقي

وقول تقي الدين بن دقيق العيد

تمنيت ان الشيب عاجل لمتي ... وقرّب مني في صباي مزاره

لآخذ من عصر الشباب نشاطه وآخذ من عصر المشيب وقاره

وقول فتح الدين القنائي

بعادك علم الطرف السهادا ونفر عنه في الليل الرقادا
وبات بليل ارمد ليس يرجو لليل بات يسهره نفادا
كأن الليل فارقه حبيب فلم ينزع لفرقته الحدادا
فما للدهر لا ينفك يهوى مخالفة الذي اهوى عنادا
يباعد من اريد له دنوًا ويدني من اريد له بعادا
كأن عليه ميثاقًا ووفى به ان لا يبلغني المرادا

ومن طريف ما رواه ان ناظم هذه الابيات ادّعى انه كان ينظم القصيدة ويجعلها في ديوان ابي تمام ثم يعرضه على الناس فلا يميزون بين الشعرين فقال له احد الادباء انت لاتمدح شعرك وانما تذم الناس . وقول انجب الدين الاسنائي

الحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي اوجب جرح الصدود

هكذا نسبهما لانجب الدين نقلاً عن العماد في الخريدة . قلت وقد وهم الشيخان فالبيتان لولّادة بنت المستكفي لا يكاد يختلف في ذلك اثنان وقد وقفت على اوهام من هذا القبيل فرطت من بعض الائمة فنسبوا اشياء لغير قائليها اما لاشتباه في الاسماء او لسهو عرض وجلّ من لا يسهو وربما افردت نبذة لذكرها ان شاء الله .

ومن غريب ما رأيته فيه من المنظوم نوع من الزجل تكرر ذكره سماه المصنف (بليقة) وجمعها على بلاليق مما يدل على ان اللام في المفرد مشددة ولا ادري أكانت البليقة تطلق عندهم على كل ما نسميه اليوم زجلاً او هي خاصة بنوع منه فمنها قول هبة الله الادفوي وقد سئم من قراءة الفصول لابن معط في النحو

ياقوم واش هذا الفضول نقرا الفصول
الملحة نقرا يافلان او مختصر شيت والبيان هذا يجنن بالضمان
لسائر ارباب العقول
من قوله معديكرب القلب اضحى منكرب وبيت عقلي قد خرب
وشرح حالي فيه يطول
من صحروات مع حبليات ومد وشد مع حات بات من الذي عنده ثبات
يفهم مفاعيل مع فعول

ومنها مطلع بليغة لبعضهم في مجو قاض

قاضي القضاة اعزل نفسه لما ظهر للناس نحسه

ولا يستقيم الوزن الا باسكان اواخر الكلم كما تنطق العامة . ومما استفدته من هذا الكتاب عثوري فيه على كلمات عامية مستعملة الى الآن بمصر ادمجها المصنف في عبارته مما يدل على انها اقدم في الاستعمال من عصره حتى صارت من المألوف عندهم والا لما جرى بها قلم مثل هذا الامام في مثل هذا التأليف . وبالجملة فمحاسن الكتاب كثيرة وفوائده غزيرة فلعل احد المشتغلين بالطبع من الوراقين يتنبه له فيطبعه ليعم نفعه .

القاهرة احمد تيمور

جالينوس العرب

أو

ابو بكر الرازي

الا لفتة منا الى الزمن الخالي فنغبط من اسلافنا كل منضال
تلونا اناساً في الزمان تقدموا وكم عبرة لمن تقدم للتالي
الا فاذكروا يا قوم ارع محمدكم فقد درست الا بقية اطلال
لتطلبتو سنو الحياة واتقو بجهل وهل تصفو الحياة لجهال
وما اتقو الا كسكران طافح تخيل من الصهباء عشرة ارطال
مشى بارتعاش في الطريق فتارة يقوم واخرى ينهوي فوق اوحال
يمد الى الجدران كف استناده فتقذفه الجدران قذفة اذلال
ويفتح للطراق مقلة حانق فيمضها خزيان عن شتم غذال

***

رمى الدهر قومي بالخمول فليتهم واوسعتهم عذلاً فلم يجد تعذالي
فهاج البكا بأمي فلا بكيتهم بدمعي حتى بل دمعي سربالي
نظرت الى الماضي وفي العين حمرة كأن على آماقها نضح جريال
فشمت بروق الاولين منيرة على افق من ذلك الزمن الخالي